



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne

AnIsl 24 (1989), p. 1-13

Ayman Fu'ād Sayyid

تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها في زمن الفاطميين
ʿidāratha wa miṣrīya-al ʿāṣima-al Tanẓīm
fi zaman al-faṭimīyyīn.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711622	<i>BIFAO 126</i>	
9782724711059	<i>Les Inscriptions de visiteurs dans les Tombes thébaines</i>	Chloé Ragazzoli
9782724711455	<i>Les émotions dans l'Égypte Ancienne</i>	Rania Y. Merzeban (éd.), Marie-Lys Arnette (éd.), Dimitri Laboury, Cédric Larcher
9782724711639	<i>AnIsl 60</i>	
9782724711448	<i>Athribis XI</i>	Marcus Müller (éd.)
9782724711615	<i>Le temple de Dendara X. Les chapelles osiriennes</i>	Sylvie Cauville, Oussama Bassiouni, Matjaž Kačnik, Bernard Lenthéric
9782724711707	????? ?????????? ??????? ???? ?? ???????	Omar Jamal Mohamed Ali, Ali al-Sayyid Abdelatif
???	????? ?? ??????? ??????? ?? ????????? ?????????????	
????????????	???????????? ??????? ??????? ?? ??? ??????? ??????;	

ولا نستطيع أن نعرف بدقة إذا كان المحتسب موظفًا حكوميًّا بمعنى الكلمة كما يبدو ذلك واضحًا من كتب الحِسْبَة التي كتبت ابتداءً من بداية العصر الأيوبي ، أو كان رئيسًا لطائفة حِرْفِيَّة ، فمعلوماتنا عن العصور الإسلامية الأولى لا تفيدنا في التعرف على نشأة أية تجمعات خاصة ذات دور حِرْفِي . ولكننا نجد في كتاب « إغاثة الأمة » للمقرئى نصًّا يحوى سلسلة من الإشارات الدقيقة عن الحياة الاقتصادية في مصر في منتصف القرن الخامس الهجرى وعن ذكر الأسواق والطوائف والعرفاء والحِسْبَة .

يشير هذا النص بوضوح إلى أنه كان هناك إلى جانب المحتسب وأعوانه ، الذين يمثلون في الحقيقة الحكومة الفاطمية ، كان لكل سوق من أسواق الفسطاط فيما يخص إشرافه الداخلى رئيسٌ مفوضٌ عنه فى الاتصال بالحكومة يعرف بالعرِيف^(٦٥) ، وكذلك كان لكل طائفة رئيسٌ مماثل فابن المأمون يحدثنا عن عرَفَاء السقائين^(٦٦) .

أما القاضى فقد كان موظفًا دينيًّا أصلاً ، وكان واجبه الأول إقامة العدل على أساس الشريعة ، ومن ثم فقد كان من الضروري أن يكون ضليعًا فى الفقه خبيرًا بأحكامه . يقول ابن الطَّوِير : « لا يتقدَّم عليه أحدٌ أو يحتسب عليه ، وله النظر فى الأحكام الشرعية ودور الضَّرْب وضَبْط عيارها »^(٦٧) ، وإذا كان وزير الدولة صاحب سيف كان تقليده من قبله نيابةً عنه وإن لم يكن كان تقليده من الخليفة وكان له نُوَابٌ ينوبون عنه فى سائر الإقليم يعرفون بنوَاب الحُكْم ، وكان لا يعدل شاهدًا إلا بأمر الخليفة^(٦٨) .

وكان القاضى يجلس يوم الاثنين والخميس بالقصر بالقاهرة ، ويجلس يومى السبت والثلاثاء بزيادة الجامع العتيق بمصر^(٦٩) .

وكان أهم اختصاصاته مصاحبة الخليفة فى المواكب العظام والوقوف بجانبه عند صلاة الجمعة أو صلاة العيدين^(٧٠) وهو الذى يضع النَّبْل فى نَحْر الضحية فى عيد النحر نيابة عن الخليفة^(٧١) ، كما كان من اختصاصاته كذلك الصلاة على الجنائز^(٧٢) وكان يتقاضى راتبًا قدره مائة دينار فى الشهر^(٧٣) .

*
*
*

(٦٩) نفسه ، ناصرى وخسرو : سفرنامه ١٠٢ .
(٧٠) المقرئى : الخطط ١ : ٤٥٥ و ٢ : ٢٨١ (عن ابن الطَّوِير) .
(٧١) نفسه ١ : ٤٣٦ و ٤٣٧ (عن ابن الطَّوِير) .
(٧٢) المسبحى : أخبار ٩٧ و ١٠١ و ١٠٥ .
(٧٣) ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٩ يذكر أن راتبه ألفى دينار ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٤٠ والخطط ١ : ٤٠١ .

(٦٥) المقرئى : اغاثة الأمة ١٨ - ١٩ والمقفى (مخ السليمية) ٣٦٢ ظ وانظر كذلك أبا المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .
(٦٦) ابن المأمون : أخبار ٦٩ - ٧٠ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٣ والاتعاظ ٣ : ١٠ .
(٦٧) القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٣ .
(٦٨) نفسه .

يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء ، أرسل المأمون من قبله نساءً يدخلن هذه المساكن ويتعرفن أحوال سكانها الداخلية ولمعرفة إذا كان هناك غرباء يقيمون في البلدين بحيث أصبح لا يخفى عليه شيء من أمرهما^(٥٨) .

صاحب الرُّبْع

كان لكل قطاع سكني أو حارة في العاصمة (القاهرة والفسطاط) مشرف خاص بها يسمى « صاحب الرُّبْع »^(٥٩) . كان هذا الموظف هو وأعوانه أوّل من يتحرّكون عندما يُهدّد النظام العام . وكان من اختصاصاته جمع سكان الحارة وقيادتهم للقاء الخليفة عندما يدخل في موكب عام إلى المدينة^(٦٠) .

ونعرف عن طريق وثائق الجنيزة أن مصاريف تكاليف العناية بالشوارع كانت واجبة على المباني التي تحدّها . وكانت عملية الإصلاح تتم تحت إشراف صاحب الربع أو الملاك أنفسهم^(٦١) .

ثانياً : المُحتَسِب والقاضى

وإذا جاز لنا أن نعتبر الوالى وصاحب الشرطة موظّفين مدنيين ، لأن واجباتهما لم تكن مرتبطة بالمسائل الدينية ارتباطاً مباشراً (فيما عدا إشرافهما على الحِسْبَة) ، فقد كان المحتسب على عكس ذلك موظفاً دينياً في الأساس مثله في ذلك مثل القاضى .

كانت الحياة في القاهرة طوال العصر الفاطمي ، أو على الأقل حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، بسيطة خالية من الأسواق العامة تقريباً بحيث أنها لم تتطلب وجود مثل هذا الموظف ، بعكس الفسطاط المركز التجارى والاقتصادى الكبير العامرة بالأسواق والبضائع مما جعل وجود المحتسب أمراً ضرورياً للإشراف على الأسواق ومراقبة الأسعار .

كانت مهام المُحتَسِب متنوّعة وتتراوح بين الإشراف على التجارة والصناعة إلى تطبيق الشريعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٦٢) . وكان سجله يُقرأ بمصر والقاهرة على المنبر وكان له أعوان في القاهرة والفسطاط وسائر الأعمال كنوّاب الحُكْم . وكان من العوائد في الدولة الفاطمية ، دون شك قرب نهايتها ، أن يجلس بالجامع الأزهر وجامع عمرو يوماً بعد يوم^(٦٣) . وكان المحتسب يتقاضى مرتباً شهرياً قدره ثلاثين ديناراً^(٦٤) .

(٦٢) القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٦١ .

(٦٣) نفسه ٣ : ٤٨٣ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٤ .

(٦٤) الخطط ١ : ٤٦٤ .

(٥٨) ابن ميسر : أخبار ٩٨ ، المقرئى : اتعاط ٣ : ١٠٨ .

(٥٩) القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٥١ ، النجوم ٥ : ١٨٥ .

(٦٠) Goitein, S. D., *op. cit.*, II, p. 369 .

(٦١) *Ibid.*, IV, p. 40 .

كذلك حدّد الخليفة في كل هذه السجلات الثلاثة وضع أهل الفسطاط وطبقتهم فقال إنها مدينة « الفقهاء والأتقياء والقراء والعلماء »^(٥٠) ، « والتجار الذين هم عَيْنُ الحلال والحرام والرعيّة الذين هم قوام العيش في الأيام »^(٥١) .

وبعد ذلك يوجّه الخليفة الوالى إلى اتباع نفس السياسة التى يقوم بها والى القاهرة من حيث الإشراف على النظام والأمن والقيام بواجب المحتسب . وتبعاً لهذه السجلات فقد كان والى الفسطاط يتولّى بالإضافة إلى عمله ولاية الصناعتين^(٥٢) .

وأول ما يقابلنا ذكر اسم والى للقاهرة فى المصادر الفاطمية فى أثناء حوادث سنة ٤٩٠ كما يروىها لنا ابن ميسر^(٥٣) وذلك عندما ذكر ذخيرة المُلْك جعفر بن علوان الذى عاقب فى هذه السنة عدداً من العامة لسببهم الصحابة فى يوم عاشوراء عند مشهد السيدة نفيسة^(٥٤) . وقد ظلّ ذخيرة الملك والياً للقاهرة حتى وزارة المأمون بن البطائحي ، وهذا الوالى هو وسعد الدولة الأُحدب ، الذى كان والياً للقاهرة فى زمن الأمر ، الاسمين الوحيدين اللذين حفظتهما لنا المصادر الفاطمية^(٥٥) .

وعندما تولّى الوزير شاور الوزارة للخليفة العاضد للمرة الثانية بعد انتصاره على ضِرغام فى سنة ٥٥٩ عيّن الخليفة ابنه الكامل شجاع نائباً لأبيه فى الوزارة كما عهد إليه فى سجل توليته بالإشراف على مدينة القاهرة لتأمينها من الفوضى التى أحاقت بها على أيدى حامية الفرنج (التى تركها عمورى الأول ملك بيت المقدس) وبسبب انتقال أهل الفسطاط إليها بعد حريق مدينتهم^(٥٦) .

وقد أدّت العناية بتعمير البر الغربى لخليج القاهرة منذ بداية القرن السادس الهجرى إلى ضرورة تعيين والٍ خاص بجامكية لهذا الجانب وإن لم تحدّثنا المصادر عن طبيعة دور هذا الوالى^(٥٧) .

ولعل من أهم الواجبات التى أُسندت إلى والى القاهرة والفسطاط الأمر الذى أصدره إليهما الوزير المأمون البطائحي سنة ٥١٨ وأمرهما فيه « أن يُسَقِّعا له شارعاً شارعاً وحارةً حارةً بأسماء من فيها من السكان وأن لا يمكّنا أحدًا من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بما يعهداه فيه » . لم يكن هذا التكليف بغرض إحصاء السكان وإنما خوفاً من الفرقة الحشيشية . فقد كانت الأماكن الشاغرة تمثل تهديداً للدولة وعلى ذلك أصبحت المباني أماكن ممنوعة ولا بد من إرسال تقرير عنها إلى السلطات . وعندما وصلت إليه أوراق التسقيع وفيها أسماء أهل مصر والقاهرة وكُنَاهم وأحوالهم ومعاشهم ومن

(٥٠) نفسه ١٠ : ٣٦٦ .

(٥١) نفسه ١٠ : ٣٥١ و ٤٢٣ .

(٥٢) نفسه ١٠ : ٤٢٣ .

(٥٣) ابن ميسر : أخبار مصر ٦٥ ، المقرئى : نهاية الأرب

(خ) ٢٦ : ٨٢ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٠ .

(٥٤) ابن المأمون : أخبار ٤٧ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٣٥٨ .

٤١١ واتعاظ ٣ : ٥٥ والمقفى (خ . السليمية) ٢٩٨ ظ .

(٥٥) المقرئى : الخطط ٢ : ١١٤ .

(٥٦) القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١٨ - ٣٢٥ ، الشيال :

مجموعة الوثائق الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) ١٦٦ - ١٦٧ .

(٥٧) نفسه ٢ : ١١٤ والاتعاظ ٣ : ٤٣ ، القلقشندى :

صبح ٣ : ٣٥٨ .

هذه المدينة هي التي أسس على التقوى بُنيانها ، ولها الفضيلة التي ظهر دليلها ووضّح برهانها : لأنها حُصِّت بفخر لا يُدرك شأؤه ولا تُدرك أمادُه ، وذلك أنّ منابرَها لم يُذكر عليها إلا أئمة الهدى آباء أمير المؤمنين وأجداده ، ثم إنّها الحرّم الذي أضحى تقديسه أمرًا حتمًا ، وظلّ ساكنه لا يخاف ظلماً ولا هضمًا ، وغدّت النعمة به متممةً مكتملةً^(٤٦) . ثم يُحدّد وظيفة الوالى ومسئوليّاته بقوله : « فاشمَل كافة الرعايا بها بالصيانة والعناية ، وعمّمهم بتأمّ الحفظ والرعاية وابتسط عليهم ظلّ العدل والأمانة ، وسيرّ فيهم بالسيرة العادلة الحسنة ، وساوٍ في الحقّ بين الضعيف والقويّ ، والرّشيد والعويّ ، والمليّ والذمّيّ ، والفقير والغنيّ ، واعتمد من فيها من الأمراء والمميزين ، والأعيان المقدمين والشهود المعدّلين ، والأمائل من الأجناد ، وأرباب الخدم من القوّاد بالإعزاز والإكرام ، وبلّغهم نهاية المراد والمرام ، وأقمّ حدود الله على من وجبت عليه بمقتضى الكتاب الكريم وسنة محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وتفقد أمور المتعيشين ، وأمنع من البّخس في المكاييل والموازين ، وحذّر من فسادٍ مُدخِل على المطاعم والمشارب وانتهج في ذلك سبيل الحق وطريق الواجب ، واحظر أن يخلو رجلٌ بامرأة ليست له بمحرّم ، وافعل في تنظيف الجوامع والمساجد وتنزيها عن الابتدال بما تُعزُّ به وتُكرّم ، واشدّد من أعوان الحُكم في قوود أباة الخصوم وأوعز إلى المستخدمين بحفظ الشارع والحارات ، وحراستها في جميع الأزمنة والأوقات ، وواصل التّطواف في كل ليلة بنفسك في أوفى عدّة وأظهر عدّة ... وطالع مجلس النظر الأجلّى المملكي بما تحتاج إلى علمه^(٤٧) .

وحسب ما ورد في هذا السجل نجد أن والى القاهرة كان يجمع وظائف الحسبة والشُرطة بالإضافة إلى مهامه الإدارية والتي تشمل في الأساس تنفيذ أوامر الخليفة والحفاظة على الأمن والنظام ، والنظر في قضايا العقوبات والإجرام وتولى تنفيذ الأحكام كالسجن أو التحذير أو الجلد ، بالإضافة إلى قيادة مواكب الخليفة في أيام الركوب والمواسم والتي أتى على تفصيلها ابن الطووير .

ومن ناحية أخرى فقد حفّظ لنا القلقشندي نصّ ثلاثة سجلاتٍ أخرى خاصة بتولية والى الفسطاط صادرة جميعها أيضًا في نهاية العصر الفاطمي يحدّد فيها الخليفة مكانة الفسطاط بأنها « المجاورة لحلّ الخلافة ، وكلّ مصرٍ بالنسبة إليها معها بالإضافة ، وهي خِطّة النيل وفُرصة المنيل ... ولا يؤهّل لولايتها إلا كل حاملٍ لعبتها الثقيل ، ولا تُسند الخدمة فيها إلا لكلٍ مثرٍ من ذخائر السياسة غير فقير ولا مُقلٍ^(٤٨) » وأنها « من أنفَس الولايات محلاً ، وأثبّتها على غيرها فضلًا ، بمجاورتها للمقام الكريم ، وحُصُولها من استقلال الرّكاب الشريف إليها على الشرف العظيم ، واحتصاصها في مَجال الخلافة بما جَمع لها بين الفخرين الحادث والقديم ، وأوجب لها على غيرها من البلاد مزيّة ظاهرة التّكريم والتقديم ...^(٤٩) .

(٤٨) القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٤٨ .

(٤٩) نفسه ١٠ : ٣٦٥ .

(٤٦) القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٤٧) القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٤٢ .

وظهر دور والى القاهرة في تنظيم مواكب الخليفة من خلال النصوص التي أوردها ابن الطُّوِّير ووصف فيها المواكب العظام للدولة الفاطمية والتي استقر ترتيبها في زمن خلافة الأمر مع مطلع القرن السادس . فقد كان لوالى القاهرة مكان في الموكب يسير فيه^(٣٧) ويتولَّى مع صاحب الباب الوقوف على رأس الطرق لمنع المارة في أيام جلوس الخليفة^(٣٨) وكذلك ترتيب العساكر وحراسة الطرق التي يستخدمها الخليفة في أيام الركوب^(٣٩) .

موظف آخر كانت اختصاصاته مشابهة لصاحب الشرطة ، إلا أنه كان يؤدي عمله فقط في أثناء الليل هو « صاحب العَسَس » أو « متولى الطوف ليلاً » وكانت صلاحيات هذا الموظف ، الذى كان يعمل تحت إشراف الوالى ، تتضمن الإشراف على القصر الخِلافى^(٤٠) والقبض على السراق^(٤١) ، كما كان يصحبه دائماً عددٌ من السقَّائين والمَشَاعلية والنَّجَّارين والقَصَّارين والهدَّادين « خوفاً من أن يحدث في القاهرة في الليل حريقٌ فيتداركون إطفاءه »^(٤٢) .

ولا يعنى اختفاء وظيفة « صاحب الشرطة » في أواخر العصر الفاطمى أن « الوالى » كان يقوم تماماً بصلاحيات هذه الوظيفة ، بل كان هناك موظف آخر لم يرد ذكره كثيراً في المصادر الفاطمية يتولى مهمة صاحب الشرطة هو « متولى المعونة » أو « والى المعونة » . وقد ميَّز كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المنسوب إلى ساويرس بن المُقَفَّع بين متولى المعونة بمصر (الفسطاط) ومتولى المعونة بالقاهرة الذى كان يشبه أن يكون نائباً للوالى^(٤٣) . وتبدو بعض صلاحياته من الأمر الذى أصدره له حُسام الملك صاحب الباب عندما تحوَّل الخليفة الأمر بأحكام الله إلى منظرة اللؤلؤة واهتم بسكن الدور المُطَّلَّة على الخليج ، حيث أمره بالكشف عن الأدر المطلة على الخليج قبلى اللؤلؤة وأن لا يُمكن أحدًا من السكن في شئ منها إلا من كان له ملك كنوع من الاجراءات الأمنية ليقيم بها حواشى الخليفة لحراسته^(٤٤) . والمرة الوحيدة التي صادفنى فيها ورود اسم « متولَّى المعونة » في وثيقة رسمية هي أمر الخليفة الأمر للأمير متولَّى المعونة بمصر بقراءة سجل التعزية في وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى على منبر الجامع العتيق بمصر^(٤٥) .

وللأسف لا تتوفر لدينا معلومات دقيقة عن الكيفية التي كان يدير بها الوالى القاهرة أو الفسطاط على السواء . ولكن من حُسْن الحظ أن القلقشندى حَفَظ لنا في « صبح الأعشى » نصَّ سجل خاص بولاية القاهرة صادر في نهاية الدولة الفاطمية يحدِّد فيه الخليفة ، وهو فى الغالب الخليفة الفائز أو الخليفة العاضد ، مكانة مدينة القاهرة ومهام الوالى ومسئوليته . يَصِفُ فيه مكانة المدينة بقوله : « واعلم أنَّ

(٣٧) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٠ .

(٣٨) نفسه ٣ : ٥٠٣ .

(٣٩) المقيزى : الخطط ١ : ٤٦٧ .

(٤٠) المقيزى : الخطط ٢ : ٢٧٧ .

(٤١) ابن المأمون : أخبار مصر ١٨ و ٩٩ ، المقيزى :

الخطط ١ : ٤٦٨ .

(٤٢) نفسه ١٨ - ١٩ ، المقيزى : اتعاظ ٣ : ٦٩ .

(٤٣) المُسَبِّحى : أخبار ٩٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ :

الشرطة لم يكن كما يؤكد Goitein هو نفسه الوالى طوال العصر الفاطمى^(٢٩) ، وإنما كانت هناك وظيفتان مختلفتان وإن كانتا متداخلتين فى الاختصاص : صاحب الشرطة والوالى . غير أنه طوال القرن الفاطمى الأول وحتى قُرب نهاية القرن الخامس الهجرى كان الذى يَحْفَظ النظام فى المدينتين يُعرف « بصاحب الشرطة » ، الموجود فى الفسطاط يسمى « صاحب الشرطة السفلى » والموجود فى القاهرة يسمى « صاحب الشرطة العليا » . أما مصطلح « الوالى » فلم يظهر فى مصادر العصر الفاطمى إلا مع نهاية القرن الخامس الهجرى . فالمُسَبَّحى ، الذى أَلَّف تاريخه فى أوائل حكم الفاطميين فى مصر ، يستخدم فقط مصطلح « صاحب الشرطة » أو « متولى الشرطة »^(٣٠) ، ولا يذكر على الإطلاق لفظ « الوالى » بينما يقابلنا لفظ « الوالى » بكثرة عند المؤرخين الفاطميين المتأخرين وخاصة ابن المأمون وابن الطُّوَّير اللذين لا يذكران مصطلح « صاحب الشرطة » على الإطلاق^(٣١) . وهذا يعنى أن العاصمة الفاطمية لم تعرف فى القرنين الرابع والخامس للهجرة سوى وظيفة « صاحب الشرطة » التى اختفت بعد ذلك لتحل محلها وظيفة « الوالى » بحيث أن مسؤوليات الشرطة والمحافظة على الأمن أصبحت من ضمن اختصاصات وظيفة « الوالى » .

ويبدو أن الشرطتين العليا والسفلى كانتا تُجمَعان لشخص واحد خلال القرن الفاطمى الأول . فالمُسَبَّحى يذكر أن بدر الدولة نافذ الخادم الأسود كان يتولى الشرطتين العليا والسفلى فى سنة ٤١٥^(٣٢) ، وعندما تولى بقى الخادم الأسود الشرطتين فى العام نفسه نظَّر فى الحِسْبَة مضافاً إلى الشرطتين ثم صرَّف عن الحِسْبَة والشرطة بعد إعادة دَوَّاس بن يعقوب الكُتَّامنى للحِسْبَة^(٣٣) . يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندى من أنه رأى فى بعض سجلات الفاطميين إضافة الحِسْبَة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشرطة بهما أحياناً^(٣٤) .

ولا شك أن التطور الذى عرفته وظائف الإدارة فى العاصمة المصرية فى القرن السادس / الثانى عشر قد حدث فى أعقاب زوال الأزمان المتتالية التى تعرَّضت لها البلاد والعاصمة بصفة خاصة فى أواسط القرن الخامس / الحادى عشر . فقد اتضح النظام الإدارى للعاصمة ولسائر الإقليم بعد الإصلاحات الإدارية التى أدخلها نظام بدر الجمالى فى العقد السابع لهذا القرن والتى قسِّمت فيها مصر إدارياً إلى أربع ولايات رئيسية هى : قوص والشرقية والغربية والإسكندرية^(٣٥) بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط^(٣٦) مما تطلب إنشاء وظائف ولاة لهذه الولايات الست كان يخرج لأصحابها ، الذين كانوا من أرباب السيوف ، سجل من الخليفة .

(٢٩) Goitein, S. D., *op. cit.*, II, p. 368 .

(٣٠) المُسَبَّحى : أخبار مصر ٣٠ و ٦٨ و ٨٩ و ١٠١ .

(٣١) ابن المأمون : أخبار مصر ٢٧ و ٣٥ و ٤٠ و ٤٧ و ٥٣ و ٦٩ و ٧٨ ، ابن الطُّوَّير عند المقرئى : الخطط ١ .

(٣٢) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٣ - ٤٩٤ ، المقرئى : اعجاز ٣ : ٣٣٦ .

(٣٣) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٣ - ٤٩٤ ، المقرئى : اعجاز ٣ : ٣٣٦ .

(٣٤) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٣ وكذلك ١٠ : ٣٤٢ و ٤٢٣ .

(٣٥) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٣ - ٤٩٤ ، المقرئى : اعجاز ٣ : ٣٣٦ .

(٣٦) المُسَبَّحى : أخبار مصر ٤٤ و ٤٧ و ٧٠ .

إدارة العاصمة الفاطمية

والآن وبعد أن أوضحنا ما المقصود بالعاصمة المصرية وتعرّفنا بصفة عامة على الخطوط العريضة لمظهرها الفيزيقي ، فلنشرّع في رسم صورة تقريبية للطريقة التي كانت تُدار بها هذه العاصمة ونتعرّف على المرافق التي عرّفها والوظائف الحضرية التي أدتها^(٢٦) .

لعله من الغريب أن المؤرخين المسلمين لم يقدّموا لنا أبداً صورة ولا حتى محاولة لشرح التنظيم المدني للعاصمة المصرية في زمن الفاطميين ، وإن كان الطابع الأكثر وضوحاً للعاصمة الفاطمية - إذا نظرنا إليها من زاوية إدارتها المدنية - هو العيّبة شبه التامة للمؤسسات النوعية ، سواء منها ما يمثّل المنظمات الجماعية للشعب أو تلك التي تنشئها السلطات الحاكمة ، وهذا النقص ليس مما يثير الدهشة على الإطلاق ، فقبل كل شيء وبصفة عامة ، فإن المدن الإسلامية لم تتبّع نظاماً انتخابياً في اختيار موظفيها المسؤولين عن شؤون البلديات ، لأنها لم تجد في الواقع ضرورة لتبني نظام من هذا النوع ، إذ يجب أن نتذكر أن المدينة الإسلامية لم تكافح أبداً من أجل استقلالها كما فعلت المدن الأوربية والإيطالية منها بصفة خاصة ، في نفس العصر ، وهذا هو السبب الذي من أجله لم تُعرف المدينة الإسلامية نفس نمط المؤسسات النوعية الذي عرفته المدن الأوربية ، فقد كان موظفو المدينة الإسلامية أجمعون يختارهم الخليفة أو السلطان .

فمن هم إذاً هؤلاء الموظفون الذين اختارهم الخليفة لإدارة العاصمة الفاطمية ؟ وما دورهم ؟ وما هو التطور الذي طرأ على وظائفهم في خلال العصر الفاطمي ؟ كانت إدارة العاصمة الفاطمية تستند إلى ثلاثة موظفين رئيسيين هم : الوالي وصاحب الشرطة والمُحتسب بالإضافة إلى القاضي .

أولاً : الوالي وصاحب الشرطة

كان الوالي وصاحب الشرطة دائماً من أرباب السيوف^(٢٧) ، وكان الذي يتولى وظيفة الوالي يُعد من ذوى المكانة العالية في الدولة^(٢٨) . وقبل أن نوضّح واجبات هذه الرتبة يجب أن نذكر أن صاحب

في مصر الإسلامية وهو « نهاية الرتبة » للشيزري كتب في العصر الأيوبي كما أن وثائق وحُجج الأوقاف يرجع أقدمها إلى الصالح طلائع بن رزّيك وتختص بالريف المصرى والوثائق الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها هي وثائق الجيزة .

(٢٧) القلقشندي : ص ٣ : ٤٧٨ - ٤٨٠ .

(٢٨) نفسه ٣ : ٤٨٠ .

(٢٦) في غياب مصادر العصر الفاطمي فقد اعتمدت على المصادر المتأخرة التي اعتمدت على المصادر الفاطمية التي فقدت اليوم وقد حرصت على تتبع هذه المصادر والتأكد من أن المعلومات التي يوردها كل من المقرئى والقلقشندي تعود بالفعل إلى العصر الفاطمي . كذلك فإن كتب الفتاوى والحسبة لا تصلح لدراسة العصر الفاطمي لأن أول كتاب في الحسبة كتب

وتبعاً لما يورده المُسَبِّحى فقد كان ثَمَنُ راوية الماء المحمولة على ظهور البغال في سنة ٤١٥ درهين ، بينما بلغ ثَمَنُ الراوية المحمولة على ظهور الجمال ثلاثة دراهم^(٢٠) .

أما مَوْرَدَةُ السقائين التي كان يحمل منها السقاؤون المياه إلى أهل القاهرة فكانت تقع على الشاطئ الشرقي للخليج خارج باب سعادة^(٢١) . وقد أقام السلطان الصالح نجم الدين أيوب في موضعها في سنة ٦٣٩ قنطرة عرفت بقنطرة باب الحَرْق لينتقل عليها إلى الميدان السلطاني الذي أقامه في أرض اللوق على الجانب الغربي للخليج^(٢٢) .

وهكذا فقد لعب السقاؤون في القاهرة والفسطاط على السواء طوال العصور الوسطى وحتى العصور الحديثة دوراً بارزاً . ففي العصر الفاطمي كان لهم رؤساء ينيبون عنهم في علاقتهم مع الدولة كان الواحد منهم يعرف « بالعريف » فابن المأمون يذكر في حوادث سنة ٥١٧ أن الوزير المأمون البطائحي أمر والي القاهرة والفسطاط باستدعاء عُرَفَاءِ السقائين وأخذ الحُجَجِ على المتعششين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دَعَتِ الحاجة إليهم ليلاً ونهاراً ، وأن يُعْتَمَدَ ذلك كذلك في القَرِيْبِيْنِ ، وأن يبيتوا على باب كل معونة ومعهم عشرة من الفعلة بالطوارئ والمَسَاحِي^(٢٣) .

*
* *

ورغم أننا لا نملك تفاصيل دقيقة عن وسائل النقل في العاصمة الفاطمية فيمكننا أن نظن أن الانتقال الداخلي في القاهرة والفسطاط وبين البلدين كان يتم بواسطة ركوبات تُوَجَّرُ . على كِلِ فناصر حُسْرُو يروى أن كبار التجار وصغارهم في الفسطاط كانوا يتوجهون من منازلهم إلى الأسواق ممتطين الحُمُرَ المرسجة . ويضيف ناصر أنه كان في كل حي على رأس كل شارع مجموعة من الحمير عليها بَرَادِعُ مُزَيَّنَةٌ مُعَدَّةٌ للإيجار مقابل أجر زهيد . وفيما يقال فإنه كان هناك نحو خمسين ألف بغلة معدة للركوب كل يوم . ولم يكن يَسْتُخْدَمُ الخيل سوى الأجناد والعسكريون أما التجار والحرفيون ورجال الأقاليم فكانوا يركبون الحمير^(٢٤) .

وكانت الحيوانات المُعَدَّةُ للركوب جاهزة في مواقف توجد على رؤوس الشوارع الرئيسية وأسواق الفسطاط . كما كانت مواقف الحمير في القاهرة تقع على العموم بالقرب من مداخل المدينة . فابن سعيد ، في أواسط القرن السابع ، يذكر أن من كان يريد التوجُّه من القاهرة إلى الفسطاط يجد عند باب زُوَيْلَةَ عددًا لا يحصى من الحمير ، لم يجد مثيلاً له في بلد آخر ، معدًا لذلك^(٢٥) .

- (٢٠) المسبّحى : أخبار ٦٩ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ١٦٢ .
 (٢١) ابن المأمون : أخبار ٣٧ - ٣٨ ، المقرئى : الخطط
 ٤١٢ : ٢ .
 (٢٢) المقرئى : الخطط ٢ : ١٤٧ .
 (٢٣) ابن المأمون : أخبار ٦٩ - ٧٠ ، المقرئى : الخطط ١ :
 ٤٦٣ والانتعاظ ٣ : ١٠٠ .
 (٢٤) ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٥ .
 (٢٥) ابن سعيد : المغرب ٥ ، المقرئى : الخطط ١ :
 ٣٤١ ، المقرئى : نفع الطيب (بيروت ١٩٦٨) ٢ : ٣٣٩ .

وراويته مغطاة ، وعلى كل صاحب حانوت أن يجعل أمام حانوته زيراً مملوءاً بالماء مخافة أن يحدث الحريق في مكان فيطفاً بسرعة ، كما أن كل صاحب حانوت كان يلزم بأن يعلق على حانوته قنديلاً طوال الليل يسرج إلى الصباح . كما كان يوجد في القصبية قوم يكنسون الأزبال والأتربة ونحوها ويرشون كل يوم . كان بالقصبية كذلك ، في أغلب الظن قرب نهاية العصر الفاطمي ، عدد من الخفراء يطوفون طول الليل لحراسة الحوانيت وغيرها . وكان يتم كذلك على فترات متقاربة قطع ما عساه قد تربي من الأوساخ في الطرقات حتى لا تعلق الشوارع^(١٤) .

وقد كان من العوائد أيضاً أنه إذا قدم رسول بلد أجنبي ينزل من باب الفتوح ويُقبّل الأرض وهو ماشٍ إلى أن يصل إلى القصر الفاطمي ، وكذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة فإنه يخرج إلى باب الفتوح ويكشف رأسه ويستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمصير إلى القصر^(١٥) .

٣ - الخدمات العامة

لم تعرف العاصمة الفاطمية « الخدمات العامة » بمعناها المتعارف عليه اليوم . فقد كان نقل المياه والنقل الداخلي والصحة العامة على سبيل المثال موكلة إلى مهنيين متخصصين كان نشاطهم يجري بعيداً عن أي تدخّل من السلطات .

وقد أخذت مشكلة نقل المياه إلى سكان العاصمة الفاطمية تزداد حدة مع الزمن سواء في القاهرة أو في الفسطاط بعد أن أخذ مجرى النيل ينحسر نحو الغرب على فترات متباعدة فالسبع سقايات التي أقامها الوزير ابن الفرات في نهاية عصر الدولة الإخشيدية في شمال غرب الفسطاط بالقرب من بركة قارون كانت تستمد ماءها من الآبار التي حفرت في الموضع الذي انحسر عنه النيل^(١٦) . وقد شكّل تزويد أهل المدينتين بالمياه الصالحة للشرب أزمة بالنسبة للمرور داخل العاصمة . فقد تطلب احتياج العاصمة الفاطمية من المياه تخصيص عدد كبير من الجمال يصل كما قدره ناصر خسرو إلى نحو ٥٢ ألف جمل تحمل المياه في روايا كبيرة ، بالإضافة إلى السقائين الذين كانوا يحملون على ظهورهم جراراً نحاسية أو قَرَب من الجلد وذلك في الحارات الضيقة التي كان يتعذّر على الجمال السير فيها^(١٧) . ويضيف ناصر خسرو أن ماء الشرب كان يُجلب دائماً من النيل وأن الآبار القريبة من النيل عذبٌ ماؤها بينما تزداد ملوحة المياه كلما ابتعدنا عن مجرى النهر^(١٨) . ثم يذكر أنه رأى قدوراً من النحاس الدمشقي ، كل واحد منها يسع ثلاثين مناً كانت من الطلاوة بحيث يظنها المرء من الذهب ، وأنه حُكّي له أن امرأة كانت تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها تؤجّر الواحد منها بدرهم في الشهر ، وكان ينبغي على مستعجرها أن يردها سليمة^(١٩) .

(١٧) ناصر خسرو : سفرنامه : ٩٠ - ٩١ .

(١٨) نفسه ٩١ و ١٠٤ .

(١٩) نفسه ١٠٤ .

(١٤) المقرئى : الخطط ٢ : ١٠٧ .

(١٥) المقرئى : الخطط ٢ : ١٠٧ .

(١٦) نفسه ٢ : ١٣٥ ، ١ : ٣٠٥ و ٢ : ١١٦ و ١٦١ .

الخليفة في الأسبوع^(١٠) . ومن ناحية أخرى فإن على بن رضوان الطبيب يمدُّنا بوصف فريد لمدينة القاهرة نحو منتصف القرن الخامس الهجري ، يقول : « وبلى الفسطاط في العِظَم وكثرة الناس القاهرة ، وهي في شمال الفسطاط .. وليس ارتفاع الأبنية بها كارتفاع الفسطاط لكن دونها كثيراً وأزقتها وشوارعها بالقياس إلى أزقة الفسطاط وشوارعها أنظف وأقلّ وسخاً وأبعد عن العَفَن . وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار . وإذا هبَّت ريح الجنوب ، أخذت من بخار الفسطاط على القاهرة شيئاً كثيراً ، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة أن تكون يصل إليها بالرَّشْح من عفونة الكَنَف شيء ما . وبين القاهرة والفسطاط بطَّائِح تمتلئ من رَشْح الأرض في أيام فيض النيل ، ويصب فيها بعض حَرَّارات القاهرة ، ومياه البَطَّائِح هذه رديئة وَسِخَةٌ أرضها ، وما يَصُبُّ فيها من العفونة يقتضى أن يكون البخار المرتفع منها على القاهرة والفسطاط زائداً في رداءة الهواء بهما . ويُطرح في جنوب القاهرة قدر كثير نحو حارة الباطليَّة ، وكذلك يُطرح في وسط رحبة [باب] العيد إلا أنه إذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافة إلى الفسطاط أعَدَل وأصلح حالاً لأن أكثر عفوناتهم تُرمى خارج المدينة ، والبخار ينحل منها أكثر ، وكثيراً أيضاً من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة في أيام دخوله الخليج ، وهذا الماء يُستقى بعد مروره بالفسطاط واختلاطه بعفوناتها^(١١) فمن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس في شوارعهم وأزقتهم فتَعَفَن وتخالط عفونتها الهواء ، ومن شأنهم أيضاً أن يرموا في النيل ، الذي يشربون منه ، فضول حيواناتهم وجيفها وحرَّارات كَنَفهم تصبُّ فيه وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء^(١٢) .

هذا النقد اللاذع الذي وجَّهه على بن رضوان إلى موقع الفسطاط وعادات أهلها هو الذي جعل الدول المتعاقبة تبحث عن موضع في الجهة الشمالية جيد الهواء ، وهذا هو سبب امتداد القاهرة دائماً في اتجاه الشمال والغرب .

وقد أدَّى إلقاء الناس لمخلفاتهم في الخليج الذي يحمل المياه إلى القاهرة خلال الشهور الثلاثة التي تعقب الفيضان ، أدَّى إلى سد الخليج نحو نهاية القرن الخامس الهجري بحيث تعدَّر دخول المراكب إليه إلا بمشقة ، لذلك فقد جُدِّد حفره في سنة ٥٠٢ هـ وعيِّن له وال مفرد بجامكية ومُنِع الناس من أن يلقوا فيه شيئاً^(١٣) .

وفيما يلي نُجَمَل العوائد التي كانت متبعة في القاهرة والتي توضح تنظيم المدينة : فلم يكن يُسمَح بمرور حَمَل تبن ولا حمل حَطَب بَقَصَبَة القاهرة ، ولا يسوق أحد فرساً بها ، ولا يمر بها سقاء إلا

(١٠) نفسه ١٠ ، نفسه ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(١١) المقرئى : اتعاط ٣ : ١٠١ .

(١٢) المقرئى : اتعاط ٣ : ٤٣ .

(١٣) ابن رضوان : دفع مضار الأبدن - خ ٩ ظ - ١٠ .

والمقرئى : الخطط ١ : ٣٦٥ - ٣٦٦ .

الخليفة الأمر بأحكام الله في نهاية سنة ٥٢٤ ، وكان ميدان بين القصرين هو مسرح هذه الاضطرابات المتتالية والتي تكررت في سنوات ٥٢٤ ، ٥٢٦ و ٥٢٩ و ٥٣١ وفي فترة الأزمة بين شاور وضرغام . وإذا كانت المصادر لم تمدنا بمعلومات كافية عن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الفاطمية لمواجهة هذه الاضطرابات ، ولا الدور الذي كان يقوم به الوالى في زمن هذه الأزمات ، وإذا لم نكن نعرف أيضاً أين كان يقيم الوالى ومساعدوه في مدينة القاهرة ، ففي المقابل أمدتنا المصادر بطريقة غير مباشرة بمعلومات عن دور الوالى في وقت ركوب الخليفة وخروجه للاحتفالات العامة ، حيث كان واجب الوالى الأساسى هو تأمين الطريق الذى يسلكه موكب الخليفة والإشراف على من يتولون استقبال الخليفة وتوديعه^(٥) .

٢ - التنظيم

كان اهتمام الحكومات طوال العصر الإسلامى وإلى وقت غير بعيد ، فيما يخص التنظيم وإدارة الطرق ، لا يتجاوز حدًا متواضعًا كتنظيف الشوارع وإزالة الأنقاض التى تهدد بسدّها . وبفضل فقرات مطوّلة من تاريخ المُسبّحى ، حفظها لنا المقرئى ، نستطيع أن نصف بقدر كبير من الدقة كيف حوفظ على نظافة المدينة ونظامها العام في الخمسين عامًا الأولى لحكم الفاطميين . ولكننا للأسف لا نملك تفصيلات مماثلة فيما يخص بقية التاريخ الفاطمى .

فالمُسبّحى وهو يسرد أحداث سنة ٣٨٢ يذكر أن السقائين أمروا أن يُعطّوا روايا الجمال والبغال لثلاث تصيب ثياب الناس^(٦) . ويقول المؤرخ نفسه في حوادث سنة ٣٨٣ إن الخليفة العزيز بالله أمر بأن تُنصب أزياراً مليئة بالماء على الحوانيت وأن توقد المصابيح على الدور في الأسواق^(٧) . ويمدنا المُسبّحى كذلك بالمعلومات التالية عن فترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله . ففي جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ مُنع كل من يركب مع المكاريين أن يدخل من باب القاهرة راكبًا ولا المكاريين أيضاً بمجيرهم وأن لا يجلس أحدٌ على باب الزُهومة من التجار وغيرهم وأن لا يمضى أحدٌ ملاصق القصر الفاطمى من باب الزُهومة إلى أقصى باب الزُمرد ... إلّا أنه قد أعفى المكاريون فيما بعد من ذلك وقرىء لهم أمانٌ بهذا المعنى^(٨) . وفي السنة نفسها أمر الخليفة الحاكم بكُنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور في كل مكان^(٩) ، وغالبًا ما أمر أيضاً برش الشوارع والأزقة حتى لا يعيق الغبار والتراب الحركة في المدينة .

ويذكر المقرئى ، في أغلب الظن عن طريق ابن المأمون ، أن والى القاهرة ومصر كانا يأخذان جميع السقائين أرباب الجمال والدواب لرش ما بين البلدين سُخرة بغير أجر في اليومين اللذين يركب فيهما

(٥) المقرئى : الخطط ١ : ٤٣٣ و ٤٦٧ .

(٨) المسبّحى : نصوص ضائعة ٢٢ ، المقرئى : الخطط ٢ :

٢٨ والانعاط ٢ : ٥٧ .

(٦) المقرئى : الخطط ٢ : ١٠٨ و انعاط ١ : ٢٧٦ .

(٩) المقرئى : الخطط ٢ : ٥٦ .

(٧) نفسه ٢ : ١٠٨ .

ورغم الاضطرابات السياسية والأزمات الاقتصادية المتتالية التي مرّت بها العاصمة المصرية طوال العصر الفاطمي ، والتي ظهر تأثيرها بوضوح على الأخص في الفسطاط حيث أصابت بقسوة الأحياء العباسية والطولونية القديمة الواقعة شمال شرق الفسطاط ، فلم تفقد هذه المدينة على الإطلاق مركزها التجاري والاقتصادي حتى بعد حريقها المُتعمّد الذي تم في سنة ٥٦٤ / ١٠٦٨ ، فقط تراجع دورها تدريجياً وأخذت القاهرة تحل محلها خاصة بعد أن نقل الأيوبيون - خلفاء الفاطميين - مركز حكمهم من القاهرة إلى قلعة الجبل ، وبذلك فتحت المدينة المُحصّنة أبوابها على مصراعها لتستقبل لأول مرة جميع طبقات الشعب المصري .

وكان مما يميّز العاصمة المصرية في هذا الوقت ، والفسطاط على وجه خاص ، امتزاج سكانها من مسلمين وأقباط ويهود . فلم تعرف الفسطاط الـ Ghetto الديني أو الجِرْفِي ، بل إن الدار الواحدة كان يقيم بها جنباً إلى جنب ، كما نعرف من وثائق الجنيزة ، المسلمون والأقباط واليهود ، كما كان كثير من المسلمين يَعْمَلون لدى اليهود وكثير من اليهود يعملون لدى الأقباط^(٣) .

أما توزيعات الأحياء في كل من المدينتين فقد أخذت تسميات مختلفة وكان توزيعها يتم في أغلب الأحوال على أساس عِرْقِي وقد أُطلق عليها في الفسطاط لفظ « حِطَّه » بينما أُطلق عليها في القاهرة لفظ « حارة » وشرح هذين المصطلحين هنا وبيان مدلولهما يخرج بنا عن موضوع هذه الدراسة^(٤) .

تَنْظِيمُ العَاصِمَةِ

بالرغم من قلة عدد المؤسسات الحضرية الموجودة بالعاصمة الفاطمية ، فقد كان النظام العام محفوظاً داخل المدينة . وكانت الوظائف الحضرية مُؤمَّنة بالنسبة للأساسيات ، في غيبة تلك الجماعات المتخصصة ، بفضل بعض المنظمات الذاتية وشبه التلقائية .

١ - النظام العام

فقد كان النظام محفوظاً بطريقة مرضية في القاهرة في خلال القرن الفاطمي الأول وحتى فترة قليلة بعد زيارة ناصر خسرو لها ، ولكن لم تلبث أن عمّت الفوضى في فترة الاضطرابات السياسية وصراع فرق الجيش الفاطمي المختلفة في منتصف القرن الخامس الهجري . ورغم الهدوء النسبي الذي ساد القاهرة بعد ذلك وحتى أوائل القرن السادس الهجري فقد بدأت الاضطرابات من جديد في أعقاب وفاة

urbaines médiévales à Fustât et au Caire», *JESHO* XXVII (1984), pp. 113 - 155; Fu'ad Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte à l'époque fatimide*, thèse à paraître .

Goitein, S. D., *A Mediterranean Society*, Berkeley (٣) 1983 , IV , p. 46

(٤) المقرئى : الخطط ١ : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢ : ٢ ، وراجع

Garcin , J. Cl., « Toponymie et topographie

تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها في زمن الفاطميين^(*)

للدكتور أيمن فؤاد سيد

هذه محاولة لتقديم صورة قريبة لما كان عليه النظام المدني أو الحضري للعاصمة المصرية في زمن الفاطميين : وأعنى بالعاصمة مدينتي « القَاهِرَة » و « الفُسْطَاط »^(١) . فقد كانت الفُسْطَاط في العصر الفاطمي ، وظلَّت لفترة غير قصيرة بعد سقوط الفاطميين ، هي مدينة مصر الرئيسية ومركز نشاطها الاقتصادي والصناعي والعلمي . بينما كانت القاهرة هي مقر الحكومة الفاطمية ومركز الدولة الإداري والسياسي والمعقل الرئيسي لنشر الدعوة الإسماعيلية ، ويُكوِّن مجموع المدينتين - اللتين كان يفصلهما عن بعضهما نحو الميَليْن - العاصمة المصرية في العصر الفاطمي .

وكانت عاصمة مصر أو « المدينة الكبرى » ، كما أُطلق عليها على بن رضوان الطبيب في النصف الأول للقرن الخامس / الحادي عشر ، تتكوَّن من أربعة أجزاء : الفسطاط والقاهرة والجزيرة والجزيرة ، وكان أعظم هذه الأجزاء الفسطاط ويليها في العِظَم وكثرة الناس القاهرة^(٢) .

وكانت شهرة الفسطاط وسمعتها كمعقل لأهل السنة بفضل جامعها العتيق ، وكمركز تجاري بسبب قربها من شاطئ النيل وبسبب التقاء طرق التجارة القادمة من البحر الأحمر والبحر المتوسط وداخل إفريقيا عندها تُعطى على القاهرة المركز الإداري والمدينة المُحصَّنة التي كان يُحظر دخولها على غير قاطنيها ، الذين كانوا من رجال البلاط ورجال الحكم وطوائف الجُند ، إلَّا بإذن خاص .

و « تاريخ الفيوم » للنايُسي . ثم تأتي في مرحلة تالية لهذه المؤلفات كتابات موسوعي عصر سلاطين المماليك مثل « نِهَاية الأرب » للتوَيُري و « مَسَالِك الأَبْصَار » لابن فَضْل الله العُمَري و « مَبَاهِج الفِكر » للوطواط الكنبى و « الثُّحفة السِّنِّيَّة » لابن الجَيْعان و « صُبْح الأَعْشى » للقلُقَشْتُنْدَى وأخيرًا « حِطْط » للمَقْرِيْزِي .

وإذا كانت هذه المؤلفات قد تناولت الإدارة بمعناها الشامل لمصر الإسلامية ، فعلى العكس من ذلك تعد المؤلفات التي تناولت الحديث عن الإدارة المدنية قليلة جدًا بل نادرة .

(١) على بن رضوان : دَفْع مَضَار الأَبْدَان بأرض مصر (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٣٦ طب) ٩ و ، المقرزي : الخطط ١ : ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) هذه الدراسة كانت موضوع محاضرة أقيمت في ندوة « الإدارة في مصر عبر العصور » التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة في الفترة من ٧ إلى ٩ مارس ١٩٨٧ .

(١) تُمَثَّل مصر فيما يخص الإدارة وضْعًا خاصًا بين أقاليم العالم الإسلامي الأخرى أولاً بسبب احتفاظها بعددٍ وفيرٍ من أوراق البردى ومن الأوراق الرسمية ، وثانيًا بسبب أصالة مؤلفاتها الإدارية .

وقد ساعدت الطبيعة المركزية للإدارة المصرية على كتابة العديد من المؤلفات الإدارية والمالية الشاملة التي حلَّت في العصور المتأخرة محل أوراق البردى . ويبيح في مقدمة هذه المؤلفات كتاب « المِنهاج في عِلْم تَحْرَاج مصر » للمَخْرُومى وكتاب « قوانين الدواوين » لابن مَمَاتَى وكتابا « لَمَع القوانين المُصَيِّبة »